شيـــوخ وحفَـــدة..
حكاية كتاب.. وتواصل أجيال

أ. لخضر بولطيف*

تعود معرفتي بشيخ المؤرخين الجزائريين وقدوة الباحثين الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، إلى أواسط عقد الثمانينيات من القرن الماضي، وكنت يومها شابا حدثا مولعا بالمطالعة، حينما حظيت باقتناء بعض كتبه المنشورة آنذاك؛ من قبيل تاريخ الجزائر الثقافي في جزئيه الأول والثاني، وتجارب في الأدب والرحلة، والطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري. ولا يسعني الإنكار أنني وقتها لم أجدني متحمسا كثيرا لقراءة ما اشتملت عليه هذه الكتب، إذ لم أكن انخرطت بعد في الاهتمام بصنف الدراسات الأكاديمية.

ثم كان اتفق لي أن تابعت برنامجا تلفزيونيا في مطلع التسعينيات- على ما أذكر- استضيف فيه الفقيد، ولعلها أول مرة أراه فيها، وقد تشعّب النقاش فيه حول مسائل شتى، ولم يكن الشأن السياسي المحتدم -يومئذ- بمنأى عن ذلك. ولكأني به بدا مترعجا بعض الشيء من طبيعة الأسئلة المطروحة، والتي لم تكن تخلو- فيما يبدو- من الإيحاء والاستدراج، ولكن الأستاذ ظهر لي- إن لم يكن انطباعا مستجدا؛ إذ أنني عاودت مؤخرا مشاهدة الشريط المرفوع على موقعه[1]- واثقا من تقديره، مصمما على موقفه، ذلك الموقف الذي لا نشك أنه كان من دون تبعات.

وتدور الأيام دورتها، وتمر السنون تباعا، لأتخرج من الجامعة باحثا شغوفا بالتاريخ، ثم لأنتسب إلى هيئة التدريس بها، وقد توثقت صلتي بمؤلفات عميد الدراسات التاريخية، ولم يحل تخصصي الدقيق في "التاريخ الإسلامي الوسيط"، دون الاعتناء بمتابعة جديد مؤلفات الرجل، التي ما فتئت تهل علينا بين الفينة والأخرى. وستظل ذكرى عزيزة على نفسي يوم أقبلت عليه أواخر سنة

* أستاذ مساعد أ في التاريخ الإسلامي الوسيط- قسم التاريخ- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

2006، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري"، ببسكرة، فأهديته باكورة أعمالي؛ كتابي: الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي[2].

كما أتيحت لي فرصة ثانية للقائه، بعدها بنحو خمس سنوات، بمدينة تلمسان، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها"؛ في إطار احتفالية تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، وكان مما استمعنا إليه في محاضرته الافتتاحية، ما عبّر عنه في سياق الأسى أو العتب عن حواضر طاردة لعلمائها، وعلماء أشقياء بعلمهم، فيما لا يبعد عن إسقاط وقائع الماضي على أحداث الحاضر. ولم أشأ أن أفوّت هذه الفرصة- أيضا- دون إهدائه كتابي الثاني: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي"[3].

ويبدو أن لقاءنا هذا كان أعلق بذهنه من لقائنا الأول، ولعله ما يعكسه قوله- لاحقا- في حق مُهديه: "حين أهداني كتابه: فقهاء المالكية، منذ عام ونصف، استلمته بيد الشكر دون أن أقرأ حيثياته، ولا عبارات الإهداء، لأننا كنا نحضُر مناسبة عامة فيها حركة وضجيج، فاكتفيت بقراءة العنوان ثم رفعت رأسي إلى صاحب الإهداء لأهنئه على صدور الكتاب؛ ظانّا أنه مثقف متقدم العمر، فإذا هو شاب لا يكاد يدخل حرم الكهولة... وقد أتيحت لي فرصة التأمل في الكتاب ومحتوياته، ومنهج صاحبه، ونوع تفكيره، فبدا لي كتابا يعبّر عن ذهنية صافية، وقدرة عالية على علاج موضوع شائك؛ مثل العلاقة بين سلطة الموحدين وسلطة فقهاء المالكية"[4].

وكنت بعد لقائنا الأخير بتلمسان أوائل سنة 2011، بدأت ألملم شتات مقالاتي وأبحاثي التي تمثل حصاد مشاركات ومساهمات في ندوات ومؤتمرات علمية انعقدت خلال خمس سنوات مضت، بعدد من الأقطار العربية؛ مشرقا ومغربا، لمّا خطرت لي فكرة أن ألتمس منه أن يشرفني بوضع تصدير لمجموع هذه المقالات، والذي اخترت له عنوان: "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي: مقاربات في التاريخ والمنهج"؛ قبل أن أنزل- بعدئذ- على اقتراح الناشر، فيصدر بعنوان: "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي: مقاربات منهجية"[5].

ولقد وجدتني بين مقدم ومحجم، نظرا لما كان يبلغني من كثرة أشغاله والتزاماته، حتى أنه ربما اعتذر عن تلبية مثل مرادي لمن هم أعلى مني رتبة، وأطول باعا في الكتابة والنشر، ولكنني- مع ذلك- تغلبت على وَجَلي، وخاطبته بطلبي في رسالة بعثتها على بريده الإلكتروني، وما هي إلا أن جاءني ردّه بأسرع مما توقعت، وتبادلنا خلال الأشهر التالية عددا من الرسائل، لا أجد أنسب من

إيراد نصوص عدد منها، لما تنطوي عليه من مؤشرات ذات مغزى ودلالة، في التواصل بين جيلين من الباحثين، فرّق بينهما الزمان والمكان، ووصل بينهما اتحاد الهدف، واشتراك الغاية.

* * * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بسكرة، يوم: 2012/06/16

فضيلة الباحث القدير الأستاذ الدكتور: أبو القاسم سعد الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنه لمن دواعي سروري وغبطتي أن أسعد بمخاطبتكم اليوم، بعد مرور ما ينيف عن سنة على لقائي بكم ضمن فعاليات احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، إذ سنحت لي حينها فرصة إهدائكم نسخة من كتابي: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي".

ولقد شجعني ثناؤكم على الكتاب وإطراؤكم لصاحبه، على أن أفاتحكم برغبتي في أن تتكرموا بمنحي شرف تصدير كتابي الجديد: "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، وهو سفر جامع لعدد من الأبحاث والدراسات التي كنت شاركت بها في مواعيد علمية شتى؛ داخل الوطن وخارجه، وتراوحت بين مقاربات في التاريخ، ونظرات في المنهج.

وإذ ليس يعزب عني ما أنتم في خضمه من الاعتكاف على استكمال حلقة العصر الوسيط من مشروعكم الكبير "تاريخ الجزائر الثقافي"، فإنني أرجو ألا يحول ذلك دون إجالة النظر في أوراق الكتاب الذي أعتزم مطالعتكم به عن طريق بعض الزملاء ممن يحظون بإشرافكم، عسى أن تقرأوا بين ثنايا حروفه نبض وجدان يستهدي معالم سيرتكم العطرة، في متابعة مسيرة مؤرخ يستحفه الطموح، ويؤطره الالتزام.

وفي انتظار ردكم الكريم تفضلوا سيدي بقبول فائق آيات التقدير والاحترام.

محبكم؛ محل بعض تلامذتكم: الأستاذ لخضر بولطيف

قسم التاريخ، جامعة المسيلة

* * * * *

الاثنين: 2012/06/18

الأستاذ الفاضل بولطيف

لطف الله به، وشكرا على عباراتكم العطرة واللطيفة. يوم كتابة رسالتكم كنت في طريقي إلى غربة تدوم حوالي شهر من أجل الكتاب الذي ذكرتم. وسأعود إن شاء الله لقضاء رمضان في الوطن. عندئذ أرجو أن تتفضلوا بإرسال ما ذكرتم لعلني أستطيع أن أفعل ما طلبتم وأتمنى على الله القدرة على إنجازه ومشاريعي الأخرى.

هذا وأهنئكم بالكتاب مقدما. وأتمنى لكم صيفا منعشا وصحة جيدة في [ربوع] الزيبان أو أحضان الحضنة، والسلام.

أبو القاسم سعد الله

* * * * *

الاثنين: 2012/06/18

أستاذي العزيز الباحث الألمعي الدكتور أبو القاسم سعد الله

تحية إكبار وتقدير، وبعد

فلكم أثلج صدري ردكم الكريم، وكنت على وَجَل من أن تحول شواغلكم الجسام دون الرد على رسالتي. أما وأنكم قد آثرتموني بحدبكم وعنايتكم، فإنني سأرقب عودتكم بفارغ الصبر، داعيا المولى عز وجل أن يمتعكم بالصحة والعافية، وأن يبارك أوقاتكم وجهودكم، عسى أن تعودوا إلينا كدأبكم دائما بثمرة جديدة من ثمرات فكركم النير، وأثر طيب من آثار قلمكم المعطاء.

وإلى أن أحظى بشرف لقائكم- مجددا- تقبلوا مني خالص المودة والتقدير.

المخلص لخضر بولطيف

من ما بين الحضنة والزيبان

* * * * *

ثم إني تمهلت في معاودة الاتصال بالأستاذ إلى ما بعد حلول شهر رمضان بنحو أسبوعين، فخاطبته مهنئا ومذكرا، فأجابني سائلا ومستفسرا عن بعض مسائل استوقفته في الكتاب، ولم يكد يحلّ علينا عيد الفطر المبارك، حتى كان قد فرغ من تدبيج نص التصدير.

* * * * *

الاثنين: 2012/08/06

الأستاذ العزيز الباحث القدير الدكتور أبو القاسم سعد الله

حفظه الله ورعاه، ونفع به في العالمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فلم أزل أترقب عودتكم إلى أرض الوطن، راجيا أن تكونوا قد أفدتم من جولتكم العلمية، مع ما يمكن أن يكون قد أتيح لكم من تغيير الأجواء، واستطلاع الجديد.

والواقع لم يكن ثمة ما يحدوني لأثقل عليكم بتجديد طلبي في هذا الشهر الفضيل، لما له من سمت وخصوصية، عدا إلحاح صاحب دار رؤية بالقاهرة على موافاته بتصديركم الكريم للكتاب، وهو يزمع المشاركة به ضمن منشورات الدار في معرض الجزائر الدولي للكتاب، المرتقب انعقاده شهر سبتمبر القادم.

وعلى ذلك وجدتني ملجأ لمفاتحتكم بهذا الشأن مجددا، وقد ارتأيت أن أرفق خطابي بنسخة إلكترونية من الكتاب، في انتظار أن تأذنوا لي بمطالعتكم بالنسخة الورقية منه.

وختاما، أدعو الله تعالى أن يجعل أيام رمضان ولياليه، مواسم خير وبركة، تنالكم فيها ألطاف السماء، ويزداد حظكم من الأجر والثناء.

محبكم: لخضر بولطيف

بسكرة

* * * * *

السبت: 2012/08/18

سي بولطيف السلام عليكم وبعد

رغم رمضان وحرارة الجو غير العادية وطول النهار فقد وفق الله وصغت مسودة التصدير، ولكن قبل ذلك وددت أن أرجع إليك في نقطة أراها هامة وأخرى أراها في درجة ثانية.

الأولى هي أنك صوّرت الموحدين -كما فهمت- من دعاة الحرب على الرأي. وهذا-كما فهمت أيضا- مخالف لما هو مرويّ عنهم. فهم أهل الرأي وإعمال النظر في النصوص ودعاة التأمل والتأويل فيها والبعد عن التجسيم.. وهذا ما اتخذوه حجة ضد المرابطين أهل النقل والفروع وفهم

النصوص على ظاهرها حسب مذهب الأمام مالك. وأنت العليم بأن أهل الرأي هم الحنفية والمعتزلة والموحدون ومن شاكلهم. فهل أنا على خطإ في فهم رسالتك.

النقطة الثانية هي أن بحثك عن الفاتح عقبة بن نافع تركته مفتوحا، ولم تكمل الحديث عن تركته الجهادية، هل قصدت إلى ذلك قصدا؟

نظرا إلى أن كاتبتي أخذت عطلة العيد فإن كتابة التصدير بنت أناملي، أي أن إخراجها غير فني. وسوف لن أبعث لك القرص معها، فإذا أراده الناشر فأعدّه أنت بمعرفتك وإلا فإن الكاتبة ستعود بعد نصف شهر أو عشرة أيام أخرى.

كل عام وأنتم بخير.

أبو القاسم سعد الله

* * * * *

السبت: 2012/08/18

قدوتي وملهمي فضيلة الباحث القدير الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد

فلله دركم في تفانيكم ومثابرتكم، ولله دركم في أريحيتكم وتواضعكم. لئن حرمتني الأقدار من أن أجلس منكم مجلس الدرس والطلب، فإنها منّت علي بكتاباتكم الرائقة أنهل منها ما عسى أن يكون لي كالإجازة يعتزي بها من لم يظفر بشيخ أو يحظ برحلة.

أستاذي العزيز.. لقد أثرتم في تعليقكم على أبحاث الكتاب نقطتين:

فأما الأولى فتتعلق بموقف الموحدين من "الرأي". والواقع أن ثمة لبسا كبيرا يكتنف هذه الناحية من تاريخ الموحدين؛ فلطالما كيلت التهم لأسلافهم المرابطين تأثرا بما قررته الرواية الموحدية السائدة في غياب نظيرتها المرابطية، وإلا فإن عددا من الأبحاث المعاصرة التي أنجزها بعض زملائنا في تونس والمغرب، قد فندت الصورة النمطية المتوارثة بشأن المرابطين وموقفهم من الرأي والتأصيل، والكلام والتأويل. وفي مقابل ذلك لم يعد خافيا أن ما أشهره ابن تومرت مهدي الموحدين في مبتدإ دعوته من اتهامات وصم بها المرابطين، إنما لا يحسن عزله عن مقتضيات الدعاية السياسية، ومصداق ذلك أن خلفاء ابن تومرت لم يجدوا حرجا، بعد المرور من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، في التعاطي مع من وصفهم إمامهم بـ "المجسّمين"، و"المكّارين".

عدا أن موقع "الرأي" في منظومة الفكر الموحدي، يمكن تجليته استنادا إلى المايزة بين معطيين (الرأي العقدي/الرأي الفقهي):

فمن ناحية فإن الموحدين يحبذون إفساح المجال لإعمال النظر في المسائل العقدية على غرار المعتزلة ومتكلمة الماتريدية والأشعرية، وهي الناحية التي وظفها ابن تومرت في الإنحاء باللائمة على فقهاء المرابطين ممن كانت لديهم بعض تحفظات في الانفتاح على المقررات الكلامية؛ وخاصة كلما كان ذلك بمحضر من العامة التي يخشى على فهومها من الكلام والتأويل.

ومن ناحية أخرى تشدد الموحدون في إقرار القياس الذي يمثل عمدة الرأي لدى فقهاء المالكية، معولين على جدوى استمداد النصوص، والتقيد بمنطوقها، وقد أقدموا في سبيل ذلك على إحراق مدونات فقهية مالكية شهيرة مثلت خلاصة الرأي الفقهي المالكي عبر قرون من الزمن، ما كان أحد البواعث التي حملت خصوم الموحدين على اتهامهم بانتحال الظاهرية.

أما النقطة الثانية التي أثرتموها في تعليقكم، فمدارها نهاية المقال الذي خصصته للفاتح عقبة بن نافع، وأنا أوافقكم الرأي تماما في كون النهاية المفتوحة قد فوتت على الباحث الفرصة في تقويم التركة الجهادية للقائد الفاتح. وعلى الرغم من أنني قصدت حين أنجزت البحث تناول فترة محددة من حياة الفاتح، وهي المرحلة المغمورة من مسيرته الجهادية؛ مرحلة الرباط التي استغرقت نحو ربع قرن من حياته، إلا أنني اقتنعت فيما بعد، وهو ما تداركته في مداخلة لي في مناسبة مضت وشيكا، أن آثار مرحلة الرباط كانت لها امتدادات وانعكاسات على حركة الفتح، ليس من الحري إغفالها، عدا أن ما أخذت به نفسي من ترك أبحاث الكتاب على حالها يوم أنجزت، كأنما لتعكس بدورها مرحلة من حياة الباحث قابلة للتقويم والتجاوز، هو ما حدا بي إلى الإعراض عن إدراج عدد من التعديلات التي تراءت لي في هذا المقال وغيره، مما يشكل محاور الكتاب الجديد.

وخشية أن أكون أسرفت في تقديم التوضيحات المطلوبة، أقول عودا على بدء إنني أكبر فيكم أستاذي العزيز ما أبديتموه حيال طلبي من تحف وعناية، وإنني لأسعد الناس بتصديركم الذي شرفتم به مجموعة أبحاثي المتواضعة، وإنني لأرتقب توصلي به بلهفة وشغف، وليس يضير الجانب الفني، فإني سأتولاه بكل حرص واهتمام، وإني لأرجو أن أطالعكم بأولى نسخ الكتاب حال انعقاد معرض الجزائر الدولي للكتاب بعد نحو شهر من اليوم.

وفي انتظار توصلي بنص التصدير، تفضلوا أستاذي العزيز بقبول أرق تحياتي وأزكى سلامي، مع خالص تمنياتي لكم بقضاء أوقات طيبة هنيئة رفقة العائلة الكريمة بمناسبة عيد الفطر المبارك.

محبكم، الأستاذ لخضر بولطيف

بسكرة، آخر ساعة، من آخر أيام شهر رمضان 1433هـ

* * * * *

ثم كان منه أن طالعني في اليوم الموالي بنص التصدير، مؤكدا على ضرورة الاجتهاد في إخراجه "بطريقة علمية سليمة". عدا أنني شغلت يومها بمرض الوالد، وملازمته في العيادة الطبية، فلم تتح لي فرصة الرد وإزجاء الشكر إلا بعد مرور بضعة أيام.

* * * * *

الاثنين: 27 أوت 2012

أستاذي العزيز، فضيلة الباحث القدير، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

حفظه الله ورعاه، ونفع بعلمه في العالمين

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد سعدت، بل هو شعور فوق الانتشاء والحبور، يوم توصلت بتصديركم الكريم لكتابي المتواضع، ولو لا انخراطي منذ يومذاك في الانشغال بمرض الوالد- شفاه الله وعافاه- لكنت أحسنت التعبير عما تملكني من مشاعر غامرة دافقة حينها، على أنني أود في هذه العجالة أن أعرب لكم- زيادة عن واجب الشكر والامتنان- عن مدى حاجة جيلنا إلى من يأخذ بيده من الرواد الذين تتصدرون طليعتهم.

ما أشد حاجتنا إلى التقدير المخلص؛ قدر حاجتنا إلى النقد البناء. إنني أعتبر نفسي محظوظا إذ حظيت بالتقدير مشفوعا بالنقد، ممن أعتبره مثلي الأعلى، بل ممن لا يجازف بالقول، ولا يرسل الكلام على عواهنه، ولم تكن المجاملات ديدنه في يوم من الأيام.

وأذكر وأنا أطالع بعض فصول كتابكم "أبحاث وآراء" تلك التصادير التي لم تجد طريقها إلى النشر في مستهل كتب أصحابها، لا لشيء سوى لأن مدبّجها نأى بها عن أن تكون مجرد تقريظ يجلي المحاسن، ويغضي عن النقائص.

بيد أنني لا أخفيكم- أستاذي العزيز- أنه بقدر ما غمرني من مشاعر الجذل والغبطة، بقدر ما انتابني شعور بعظم المسؤولية الملقاة على عاتق أصحاب الكلمة. وإذ أود أن أظل في مستوى ما استشرفتموه، وما أطريتموه، فإنني سأعمل جاهدا على احتذاء سبيلكم، ومقاربة نهجكم، عسى أن أكون جديرا بتقديركم، وحمل أمانة الكلمة الرشيدة.

ولكم مني خالص المودة والثناء والتقدير.

محبكم وابنكم لخضر بولطيف

بسكرة

* * * * *

الاثنين: 27 أوت 2012

الأخ الأستاذ لخضر بولطيف تحية طيبة وبعد

لم أزد على أن عبّرت عن شعوري ومسؤوليتي فيما قرأت من كتابك الغني بالمعلومات واللغة الجميلة الراقية التي افتقدناها في مطبوعاتنا الضحلة، خصوصا كتب الترجمة والبحث.

كان الواجب أن أبدأ رسالتي بالسؤال عن أحوال والدكم الآن. أرجو أن تكون وعكة عابرة وأنه قد استعاد عافيته.

من كثرة ما قصدني الباحثون والكتاب طلبا لتصدير أو تقديم أعمالهم الأولى أصبحت أقرب بل أرفض أن أستمر في هذه العملية، أولا لضيق وقتي (لأن كل تصدير يأخذ مني وقتا ثمينا للقراءة والتقييم قبل الكتابة)، وثانيا حتى لا أصبح كبعض أسلافنا الذين كانوا يتساهلون في كتابة الإجازة لمن طلبها منهم، حتى اشتهر بعضهم بأنهم يمنحون الإجازة بالسماع فقط..

وثق أن التصدير كتب للعلم لا للعالم. والسلام.

أبو القاسم سعد الله

* * * * *

ثم إننا استأنفنا مراسلاتنا بعد نحو أربعة أشهر على خلفية اقتراح صاحب دار النشر تعديلا على عنوان الكتاب، من "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، إلى "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي"، لاعتبارات تتصل- غالبا- بمنطق الرواج التجاري. وقد استشرت الأستاذ في

ذلك مقتنعا أن المصدِّر شريك للمؤلف، عدا أنه أبدى بعض تحفظ بشأن الصياغة المقترحة، وكان من رأيه أنه لو عدَلنا إلى عنوان: "دراسات في الفقه والتاريخ من الغرب الإسلامي"؛ كونه- بحسبه- "فيه تواضع وعلمية، وتعبير أكثر دقة".

وعلى أن الكتاب صدر مفتتح سنة 2013 بالعنوان الذي اقترحه الناشر، وقد جاب به عددا من معارض الكتاب في البلاد العربية، فلم أتوصل سوى بصورة غلافه، وظللت أتطلع إلى موعد انعقاد معرض الجزائر الدولي للكتاب، مؤملا الظفر بنسخي المقررة منه. وحيث أنني أطلعت الأستاذ بآخر هذه المستجدات، فإنه لم يلبث أن خاطبني بآخر رسالة تلقيتها منه، وأجبته عنها، إبان مرضه الأخير الذي ألم به، والذي انتقل بإثره إلى الرفيق الأعلى.

* * * * *

الثلاثاء: 2013/10/09

الأستاذ المحترم بولطيف

شكرا على إخباري بصدور كتابكم الأخير. الناشرون دائما يفاجئون المؤلفين بأشياء لا يتوقعونها، وإذا أمكن أن تبعثوا إلي نسخة من الكتاب أو من التقديم التي كتبته له.

هذا ولعلك علمت أنني مريض مما أعجزني عن الكتابة، حتى هذه الرسالة كتبت بمساعدة أحد أفراد العائلة.

دمتم بخير، والسلام.

سعد الله

* * * * *

الأحد: 2013/10/13

أستاذي العزيز، فضيلة الباحث القدير، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد أهمّني خبر مرضكم الذي لم أعلمه من غيركم، ولم يكن لدي رقم هاتفكم لأطمئن عليكم بين الفينة والأخرى، وما تجرأت في يوم على طلبه منكم.

ولا أملك سوى أن أبتهل إلى الله عز وجل في هذه الأيام المباركات، أن يمن عليكم بالعافية والإبلال من مرضكم؛ فأنتم في قلوبنا في معزّة الوالد والولد.

أما بشأن الكتاب فلم أتوصل منه عدا بصورة غلافه، وإنني أترقب موعد المعرض الدولي للكتاب، حيث يسعني اقتناء حصتي من النسخ، ولن أتأخر حينها في مطالعتكم بنسختكم منه.

هذا، وتجدون نص التصدير الذي كرمتموني به مرفقا بخطابي إليكم.

مع خالص المودة والثناء والتقدير.

محبكم وابنكم لخضر بولطيف

بسكرة

* * * * *

نص تقديم الكتاب

حين أهداني كتابه: "فقهاء المالكية"، منذ عام ونصف، استلمته بيد الشكر دون أن أقرأ حيثياته، ولا عبارات الإهداء، لأننا كنا نحضُر مناسبة عامة فيها حركة وضجيج، فاكتفيت بقراءة العنوان ثم رفعت رأسي إلى صاحب الإهداء لأهنئه على صدور الكتاب؛ ظانّا أنه مثقف متقدم العمر، فإذا هو شاب لا يكاد يدخل حرم الكهولة، فقلت لنفسي إنه –إذن– كبعض الآخرين أصحاب الدعاوى العريضة الطموحين إلى طبع رسالة الماجستير في كتاب مهما تكن قيمته العلمية. ثم سلمت واحتملت الكتاب، وتوجهت وجهة أخرى.

وقد أتيحت لي فرصة التأمل في الكتاب ومحتوياته، ومنهج صاحبه، ونوع تفكيره، فبدا لي كتابا يعبّر عن ذهنية صافية، وقدرة عالية على علاج موضوع شائك؛ مثل العلاقة بين سلطة الموحدين وسلطة فقهاء المالكية، فقلت في نفسي: كيف استطاع شاب كمؤلفه أن يصنع كتابا كالذي بين يدي، بينما أساتذة بلغوا شأنا عاليا في العلم والتدريس لم ينتجوا مثله في رحلتهم عبر تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس. واعترفت أن الموضوع ليس سهلا، وأنه عالج فيه مذاهب وأفكارا ومناهج سادت المنطقة خلال عدة دول ومحطات إيديولوجية، في زمن انتقلت فيه المنطقة من حالة الركود الحضاري إلى حالة التخلف العقلي، والحالة الأخيرة هي التي ما زلنا نعيش في محنتها حسب بعض المنظرين (ابن نبي، مثلا).

لكن الإجابة لم تطل، فبعد عام ونصف وصلتني رسالة تطلب مني تصدير كتاب باسم "مسارات حضارية..."، وكنت قد نسيت الربط بين المكونات الثلاثة: كتاب فقهاء المالكية، وكتاب المسارات، والمؤلف. فقلت في نفسي لعل صاحب الطلب مؤلف من طينة الشباب الذين يتطلعون إلى نشر إنتاجهم في مناسبة وطنية -وما أكثرها- لا تراعي العلم وإنما التشجيع، وأن بعض أصحاب هذه الأعمال عادة يطلبون مني تصدير باكورة أعمالهم. وهكذا وجدتني قد ربطت بين الأستاذ بولطيف وجيله أكثر من ربطي بين بولطيف وإنتاجه. وقد ترددت -كعادتي- سيما والطلب جاءني وأنا أستعد للقيام برحلة علمية خارج الوطن، فكتبت لصاحب الطلب أشرح له وضعي، وأطلب منه تأجيل إرسال "المسارات" إلى ما بعد رجوعي.

وجاءني الكتاب في الوقت المتفق عليه تقريبا عن طريق الإيميل، فسحبت منه نسخة لقراءتها قبل الإقدام على التصدير، فوجدت فيه علما غزيرا، وطاقة في البحث غير معتادة مع الأسماء الجديدة. فقلت في نفسي: لا بد قبل أن أكتب التصدير، وأرمي بالقارئ في متاهة يحاسبني عليها، أن أطلب من الأستاذ بولطيف أن يبعث لي بسيرته الذاتية، متوهما أنها ستساعدني على الحكم الموضوعي على الكتاب وصاحبه، وتكشف لي عن جوانب لا أعلمها عن المؤلف، فأمدني بها.

وحين قرأت رصيده في السيرة؛ ومنه أبحاث "المسارات"، وجدت العلاقة واضحة جلية. فالأستاذ لخضر بولطيف من مواليد 1970، قضى معظم سنوات عمره في التحصيل من مناهل فكرية عديدة، وأنه باحث مستهلك للعلم والكتب، نشط في المشاركة بالمؤتمرات والرحلات، وأنه يمتلك قدرة كبيرة على التوثيق والتحليل والمنهجية، لا نجدها عند الكثيرين من جيله بالجامعات. ولكنه ليس من الجيل الذي يعمل كل ما في وسعه للحصول على شهادة، ولو كانت على حساب التضحية بالأمانة والمنهجية، جيل يجد مع ذلك مؤطرين لا يأخذونهم بالجد والصرامة ليخرجوا منهم باحثين مؤهلين.

أما القارئ لكتاب الأستاذ بولطيف الجديد (عشرة أبحاث أو عشر مقالات، كما سماها) فسيجد فيه مواضيع مختلفة؛ يجمع بينها الحراك الفكري، ومنهجية البحث، سواء تعلق الأمر بمسيرة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس أو العلاقة بين حضارة الشام والأندلس، وهي الحضارة التي أينعت وشعّت على بلدان المغرب العربي أيضا. وليس هناك ضرورة لذكر عناوين المقالات العشر أو الأبحاث، فهي مذكورة في المقدمة كما هي مذكورة في الفهرس.

ليس لي ما تمنيته على صاحب "المسارات" إلا التخفيف من طول العنوان، وإعادة النظر كرتين في نسبة القول "بالرأي" لعلماء المرابطين، وفي إطلاق وصف "حضارية" للمسارات، لأنها قد تكون نشازا في المرحلة التي عالج فيها أكثر من بحث، وهي المرحلة التي توصف عادة بأنها مرحلة تخلّف. وإذا كان هناك ما يشير إلى حضارة أو تطوّر حضاري، ففي الإطار العام للحضارة الإسلامية التي كانت تعاني أيضا من التخلف.

إن الأبحاث التي ضمتها "مسارات حضارية"، تتميز بالتوثيق الغني، والأسلوب الجزل، والبيان الرفيع، واللغة الواضحة التي لم نعد نقرأها أو نكتب بها في رحاب الجامعات، حيث يكتفي الكاتب في الأدب والعلوم الإنسانية بتوصيل فكرته بلغة مدرسية ساذجة، فيها نقص التكون، والتأثر بالترجمات، ولغة الانترنت. "والشيء إذا جاء من معدنه لا يستغرب"؛ فالأستاذ بولطيف من بسكرة التي عرفت في الجزائر بأنها عرين الثقافة العربية، حافظة لأساليبها منذ استوطنها بنو هلال، كما أن المؤلف نتاج البيئة التي تضمخت بدماء الفاتح العظيم الشهيد عقبة بن نافع وبضع عشرات أو مئات من أصحابه.

لا أكتم القارئ حين أصرح له بأنني قلّما صدرت كتابا مثل كتاب "مسارات حضارية"؛ الذي جمع بين دقة المنهج، وعمق التحليل، وقوة اللغة، وجمال الأسلوب، والقدرة على التوثيق، وهل في ذلك مفاجأة إذا أضفنا أن بسكرة كانت أيضا موطنا لابن خلدون بعض الوقت؟

أ.د/ أبو القاسم سعد الله

دالي إبراهيم، 16 أغسطس، 2012

* * * * *

هذه مجمل حكاية الكتاب التي صنعت فسحة من التواصل بين جيلين، ولَإنْ كان فقيدنا العزيز لم يخف في بعض ما أدلى به من تصريحات أساه، حيال ما قوبل به من نكران وجحود، حتى من "أقرب الزملاء، وأخصّ الطلبة"[6]، فإن الله قد قيّض من غير هؤلاء من تتلمذ على كتبه القيّمة، وتأدب بسجاياه الفذّة، حاملا على عاتقه مهمة متابعة الرسالة التي كرّس لها المرحوم وقته وجهده، وظل مؤمنا بها إلى الرمق الأخير من حياته.

الهوامش:

(*) الموقع على الرابط: http://www.aboulkacemsaadallah.com

(2) صدر سنة 2005، عن المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر؛ ضمن الأعمال الفائزة بجوائز المجلس، في مسابقته لأفضل البحوث في حقل الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

(3) صدر سنة 2009، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية؛ ضمن سلسلة الرسائل الجامعية.

(4) من نص تصديره لكتابي: الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي، دار رؤية، القاهرة، 2013، ص8-9.

(5) صدرت طبعته الأولى عن دار رؤية، بالقاهرة، سنة 2013، وستصدر طبعته الثانية -وشيكا- بالجزائر ضمن سلسلة الكتب المحكمة في الدراسات التاريخية والحضارية، عن منشورات مخبر البحث التاريخي: "مصادر وتراجم"، بجامعة وهران.

(6) مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الخبر، الجزائر، 2008، ص194.